اللغة العربية بين الواقع التلقيني والحاضر التفعيلي

الأستاذة: سلمى شويط
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة جيجل

هذا المقال مدار إشكاليته تكمن بين دفتي عنوانه المتمثل في قضيتين أساسيتين: الأولى : واقع اللغة العربية من حيث دورها، ومسارها في التحصيل الدراسي، وخاصة الجامعي منه، والثانية: مستقبل هذا الواقع ومدى قيمته في ظل التطورات الراهنة، وفي إطار القضيتين تتجلى كذلك عدة إشكاليات طرحها واقع اللغة العربية، سواء من خلال التدريس أم من خلال التأليف، هذه الإشكاليات يمكن بلورتها في بعض الأسئلة أفرزها هاجس حقيقي تتعايش وإياه اللغة العربية، ومنها:

– هل تبقى هذه اللغة رهينة التلقين من خلال التعليم بعيدة عن حاضر التفعيل المعرفي والعلمي، كما تبقى حبيسة الدرس الصوتي والصرفي والنحوي؟، أم تتجاوز ذلك للتطلع إلى آفاق التنظير لما هو جديد في أطروحات الدرس اللساني الحديث؟.

– ما محل اللغة العربية من نظريات الدرس اللساني الغربي المقحمة في مفردات برامجنا الدراسية في جامعاتنا، على الرغم من جدواها وقيمتها؟.

– هل واقع التدريس الجامعي خادم للغة العربية أم هي خادمة له؟.

– وهل تعليم اللغة العربية يقف عند حدود تعلم الوسيلة دون القدرة على القراءة المبصرة والعطاء المبدع أم يتجاوز ذلك؟.

خاصة إذا أقررنا أن اللغة – أية لغة – على وجه الأرض مرآة عاكسة لكل مناحي النشاط الإنساني في مجتمعنا أو بعبارة أوجز اللغة هي الإنسان نفسه [(01)]، إذ لا تقف عند الجوانب المعرفية أو العلمية بل تعبر عن كينونته وفكره وثقافته كما تجعل لنفسها ندا يتمثل في الفكر اللذان أسالا حبر الفلاسفة والمفكرين من خلال الجدلية التي أثيرت حولها، ومدى مساهمة كلاهما في تنمية الإنسان، وبما أن اللغة العربية لغة عالمية، فإن لها أهمية كبرى كما أنها تعد اللغة السادسة في العالم إذ يتحدث بها ما يزيد عن ثلاث مائة مليون شخص.

هذه العالمية جعلت منها تؤثر وتتأثر مع غيرها من اللغات والنظريات اللغوية أيضا، حتى حدا بها تأسيس ما يصطلح عليه بـ : اللسانيات العربية كمقابل للسانيات الغربية، وهذا التأثير الحضاري، وخاصة الثقافي منه هو ظاهرة طبيعية نشأت مع نشوء الحضارات المتتالية، وبحكم اتصال الشعوب، والتأثير المتبادل بين الثقافات الأجنبية والثقافة العربية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى – إذا أردنا التدقيق أكثر- فيجب التمييز أولا بين هذه المصطلحات : اللغة العربية – اللسانيات العربية – اللسانيات الغربية .

أما مصطلح "اللغة العربية"معبر كغيره وعند جميع الأمم عن أغراض المتكلمين بها ، ومصطلح "اللسانيات الغربية "هو المصطلح الجامع لتلك التطورات العلمية والمعرفية التي آلت إليها الدراسات اللسانية في الغرب،أما مصطلح "اللسانيات العربية " فحوله تحوم بعض الإشكالات تتمثل خاصة في وجوده أو عدم ذلك وإذا كانت هناك إمكانية لوجوده،ما محله من التحصيل الجامعي وكذا علاقته باللغة الأم واللسانيات الغربية.

وإن كان ما يعرف بالدراسات اللسانية الجديدة إنما هي "الدراسة العلمية التي انطلقت من مبادئ لتحقيق أهداف معينة"[02]، وفي علاقة المصطلح "اللسانيات العربية " بـ "اللسانيات الغربية " فإن أهم ما يقال عنها أنه بالرغم من أن اللسانيات العربية أو بعبارة أخرى الدراسات العربية اليوم قد أخذت حظا من ثمار اللسانيات الغربية وإن كان حظها في الجانب النظري أوفر منه في الجانب التطبيقي [03]، إلا أن وظيفتها تبقى حبيسة في عمل النقل للنظرية اللسانية الغربية الحديثة لا غير، [04] على الرغم من دخول اللسانيات إلى كل ميادين العلم والمعرفة وأصبح من غير الممكن الحديث عن أمر من أمور المعرفة إلا ونرى لسانيات فيه الفضل الأكبر .[05]، مما جعل من تعامل اللسانيين العرب في تقديم اللسانيات الغربية قد اتخذ مسارا خاصا فلم يعنوا بالتطور التاريخي للنظرية اللسانية المعاصرة وتقديم مدارسها واتجاهاتها ، ولم يعنوا كذلك بالبحث في الأسس النظرية والمعرفية لهذه النظرية بل إنهم حاولوا تعريب هذه النظرية ... دون الوقوف على إحالاتها ومرجعياتها [06]، إذ أننا نتعاط تلك النظريات وخاصة في التدريس الجامعي دون التمعن فيها أو التدقيق على الرغم من إمكانية استفادة اللغة العربية منها.

وكأن اللغة العربية "واصلة" أو "موصلة" لتلك النظريات للناطقين بها قصد تعريفها لهم دون إضافة أو حذف، وكان الأولى أخذ تلك النظريات من مضان لغتها الأم مما يسهل الفهم والاستيعاب لما في عملية الترجمة من عدم تمكين ذلك في معظم الأحوال، وهذا العمل يمكّن من وصف اللغة العربية بالقصور وعدم الاستيفاء- لدى بعض – على الرغم من أنها براء من ذلك وهذا لأن « أوجه القصور والنقص في أي لغة لا ترجع إلى هذه اللغة بذاتها بقدر ما تنسب إلى أهلها وإلى الظروف العلمية والثقافية التي تلفها وتتعامل معها ... » [07]. « ومعنى هذا أن ما نلحظه في اللغة من قوة أو ضعف، ونماء أو جمود وسهولة أو تعقيد، وما تنتظمها من عوامل الوفاء أو عدم الوفاء بحاجات المجتمع، وما يصيبها من ازدهار وتخلف، وإنما يرجع ذلك كله إلى الأجواء العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تحيط بها في مجتمعها الخاص » .[08]

وعلى الرغم من أن اللغة العربية قد عاشت وضعا ضيقا في قضايا مواكبة العصر، نظرا للظرف المرحلي الذي مرت به في فترة الانحطاط اللغوي وفترة الاستعمار الذي حاربها بكل أنواع الإلغاء [09]، فإطلاق مصطلح " اللغة " على أي لغة كانت يكسبها من العلمية والمعرفية ما كان، مما يجعلها في صفوف اللغات العالمية الأخرى في الأخذ والعطاء والتنظير والتقرير وما القصور والنقص إلا لصيق الظروف المحيطة بها « فكلما ماجت البيئة المعنية بالنشاط العلمي والثقافي نهضت اللغة واستجابت لهذا النشاط، وكلما جمد التفكير العلمي وتخلف النشاط الثقافي ظلت في موقعها جامدة » .[10]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك إضافة ومزية تضاف للغة العربية كلغة علمية فإلى جانب كونها غير ناقصة وقاصرة فإن لها موروثا غنيا وثراء زاخرا سواء من حيث الثروة اللسانية أم من حيث الثراء المعرفي وقابليتها للتنظير والتقعيد والتأسيس، وإن كان واقعنا المعرفي فرض عليها القصور في أقسام جامعاتنا حتى أضحت مهامها منحصرة في التعريف بالنظريات اللسانية الغربية لا غير، هذا الواقع الذي أفرز أيضا فراغا شبه تام يعكس عدم تماشي اللغة العربية مع تطور اللسانيات العربية، هذا من جهة ومن جهة أخرى تطور وازدهار هذه اللسانيات عند الغربيين .

إضافة إلى " جهلنا بكل خلفيات عناصرها " [11] وهذا يمهد طبعا إلى نعت اللغة بالنقص والقصور وعدم الاستيفاء للشروط العلمية والمعرفية، وإن كان هناك جهد مبذول فإنه منحصر أو مقتصر على اللهفة « ... وراء وحداتها القاموسية والسعي إلى علاج ما هو مستعجل فيها مثل المصطلح العلمي والتكنولوجي».[12]

وإن كانت هناك بادرة لخلق كيان لساني مستقل باللغة العربية لمواكبة التطور المعرفي في اللسانيات الغربية فإن هذه المبادرة متجهة إلى «... ما يمكن تسميته لسانيات توفيقية تبني نموذجا وصفيا ليمزج المقولات النظرية العربية الحديثة بمقولات نظرية النحو العربي»، وهذا مرده – كما أشرنا سابقا – إلى الوضعية الخاصة للسانيات العربية التي هي مجرد نقل للنظرية اللسانية الغربية الحديثة، مما حتم على الدراسة العربية إفراد الجزء البارز لتقديم هذه النظرية وعرضها أي تقديم ذلك الخط النظري التي ارتبطت به اللسانيات العربية ارتباطا وجوديا .[13]

وإن كان هذا التقديم فيه نظر – أيضا – لأن الترجمات التي صدرت لأعمال لسانية غربية حكمها في كثير من الأحيان طابع الاصطفاء أو المصادفة أو إيثار ما هو سهل كما أن كثيرا منا يكابد مشقة السيطرة على الفكرة في أصولها وإحكام العبارة عنها في صياغتها العربية [14]، أي الترجمة من أجل الترجمة وليس من اجل المعرفة، خاصة وأن عمل الترجمة – عموما – يشوبه في بعض الأحيان إخلال بالمعنى الأصلي.

إضافة إلى أن تلك الدراسات المترجمة يمكن وصفها بالآنية وذلك لأنها لا تتابع – في أغلب الأحيان – تطور النظرية وأهم ما توصلت إليه واقتصر عملها بذلك في التعريف والوصف لا غير إلا إذا استثنينا بعض الأعمال، هذه الأخيرة وإن كانت اكتشفت قديما عند أهلها وتعذر الوصول والتفاعل إلا مؤخرا كنظريات التواصل- عموما – والملاحظ أن الحديث عن واقع اللغة العربية بين التنظير والتفعيل من خلال التدريس الجامعي يدفعنا أو يجعل من الحديث منصبا على واقع اللغة العربية بين اللسانيات العربية واللسانيات العالمية .

هذا الواقع الذي يمكن ملاحظته على أنه اتخذ منحيين مختلفين: منحى مهتما بالموروث اللغوي قاطعا أواصره عن التطور المعرفي ومنحى آخر عكس ذلك ممجد لما هو غربي غير عربي ...، وان كان قد نتج في خضم هذا الصراع ما يسمى بالقراءة البديلة الرابطة بين التراث العربي والنظريات الغربية وبقي يدور في هذا الفلك.

أما اللغة العربية من خلال التحصيل الجامعي فهي ذات وظيفة لا تتعدى في أغلب الأحيان وظيفة الناقل.سواء بالنسبة للنظريات اللسانية العالمية أم بالنسبة لموروثها اللغوي القديم دون تفعيل لا مع القديم ولا الحديث، فلا قديم تستخرج آليات التحكم فيه بما هو جديد، ولا حديث ينظر إليه بمنظار القديم وكأن هناك قطيعة فاصلة بينهما.

ومن خلال هذا المقام يجب التمييز – أيضا – بين وجهتين للغة العربية أحدهما كونها مادة موضوعة للدرس أو أداة التدريس والأخرى اعتبارها منجزا لسانيا حقق موروثا معرفيا على يد أعلام متميزين من أمثال " الخليل " " سيبويه " " ابن جني" "الجرجاني" هؤلاء الذين فكروا في اللغة العربية فاستنبطوا منظومتها الكلية وحددوا فروع دراساتها بتصنيف لعلوم اللغة وتبويب لمحاور كل منها .[15] حتى حقق لهم ذلك التراث المعرفي الذي تزخر به مصنفاتهم . ولقد وصلت جهودهم " إلى منزلة لم تحظ بها لغة أخرى على وجه الأرض في القديم والحديث معا .ذلك أنهم قتلوها بحثا أشبعوها نظرا وتأملا، وجروا خلف ظواهرها يجمعون ويسجلون، حتى حفلت المكتبة العربية القديمة بتراث لغوي ضخم متشعب النواحي ومتعدد الجوانب ".[16]

وتعود مرونة التصنيف في اللغة العربية وتمكنها من التأسيس المعرفي إلى بنيتها الداخلية ودقة نظامها وقواعدها وغنى معجمها، وهذا يدفعنا للقول بأن اللغة العربية لغة مطواعة يمكن أن تكون لغة عالمية تؤسس معارفها بنفسها دون حصر وظيفتها في النقل، وذلك لأنه قد سبق لها البحث في القضايا اللغوية المتعلقة بها، وموروثها اللغوي شاهد على ذلك.

وما هو حائل دون ظهور ما يسمى بلسانيات عربية على أدق إطلاق لهذا المصطلح هو الوقوع في إشكالية هامشية وانغماسها فيها، حتى أضحى التخلص منها أمر عسير، ألا وهي محاولة قراءة التراث اللغوي العربي القديم في ضوء اللسانيات الحديثة وإن كان لهذا العمل فائدة مرجوة وعمل معرفي مؤسس، إلا أن هناك قصور فيه "[17] الكتابات اللغوية العربية

الحديثة غير قادرة على تقديم أي نفع منهجي أو نظري جدير بالمتابعة حتى تركت فراغا شبه تام يعكس عدم تماشي اللسانيات العربية مع تطور اللغة العربية، هذا من جهة ومن جهة أخرى تطور وازدهار هذه اللسانيات لدى الغربيين .[18]

فليس " كل ما استحدث في مجال اللسانيات التاريخية والوصفية حلا مناسبا للغة العربية وشبكات علومها المتداخلة والمعقدة ".[19]، ووجه القصور في واقع اللغة العربية لا يعود عيبه إلى اللسانيات الغربية، بقدر ما تتحمل مسؤوليته المناهج المناطة بها تفعيل اللغة العربية كلغة ذات هوية خاصة ومعرفية عامة والتي جعلت منها لغة تلقين لا غير إضافة إلى أن " الهوة لا تزال سحيقة بين تنمية لغتنا ميدانيا وبين تنميتها نظريا، ففي الأولى يشتكي منها قلة مصطلحاتها الحديثة، وفي الثاني لا أحد يقدر أن يجزم عن وصفها، أين هي منا وأين نحن منها".[20]

والأمر الأجل هو افتقارها إلى منهج أو مسار يعمد إلى التهيئة اللغوية الخاصة بها ومن تم تكملة ما شرع فيه المنظرون اللسانيون المبكرون، حتى تصبح اللسانيات العربية بأصدق إطلاق لأننا لا يمكن إغفال ما قدمه الأولون من دراسات علمية عدت قانونا ودستورا للدراسات اللسانية العالمية، كما لا يمكننا تجاوز الواقع الحالي أو الراهن بكل أثقاله وأعبائه التي جعلت من اللغة العربية مطية لتمرير القوانين اللسانية العربية لا غير

وكل هذا له انعكاس على المستوى اللغوي عموما والتدريس اللساني في الجامعة بصفة أخص، وللخروج من هذه البوتقة لا بد من الخروج من هذا الواقع أيضا، من خلال خلق جديد لمضمون مصطلح " لسانيات عربية" حتى يستوفي كل شروط الدراسة اللسانية العلمية، غير قار أو مختبئ وراء مصطلح " العربية" لما فيه من طغيان الذاتية والأمور غير العلمية .

والتأسيس لهذا المصطلح لا يكون إلا وفق منهج أو برنامج أحكمت آلياته حتى يغدو ذا وجود في الساحة اللسانية العالمية، هذا المنهج أو البرنامج يتأتى بتسطير أو تحقيق أسس هذه أهمها:

1- قراءة التراث العربي قراءة علمية – وقد طبق هذا المنهج في بعض الدراسات اللسانية العربية القيمة كالبحث عن تطبيقات النظريات الحديثة في بطون مؤلفات علوم العربية قديما.

2- الاهتمام بالنظرية الغربية الحديثة، ليس على مستوى الوصف الآني فقط وإنما متابعة تطوراتها والتدقيق في نتائجها.

3- توحيد الجهود العلمية المبذولة لخلق نظرية أو منهج لقراءة الموروث اللساني في جميع مستوياته الصوتي، النحوي الدلالي التداولي الخطابي... بدءا من مؤلفات النحو على مصنفات الدراسات الأصولية مع مراعاة مؤلفات البلاغة والتفسير- طبعا- [21]

وختاما يمكن القول أن واقع اللغة العربية اليوم ودورها في التدريس الجامعي مختزل في اقتصار وظيفتها على النقل فقط للموروث اللساني العربي أو الغربي، وأضحت بذلك أداة "توصيل" أو أداة "تلقين "لما هو حاضر.

هذا القصور – طبعا – لا يعود إلى اللغة العربية كلغة بل للظروف المحيطة بها، والتي جعلت منها غير قابلة للتفعيل، أو حتى لتأسيس معرفي واضح.

على الرغم من مقدرتها على بلورة جميع المفاهيم اللسانية وتنظيمها ضمن نظريات معرفية عالمية، وذلك بتوحيد الجهود وتوحيد الأفكار.

الإحالات:

1- كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، « د.ط، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ت.م 1999 » ص 31

2- مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، «ط.1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ت م 1989 » ص 22

3- عبد السلام المسدي،مباحث تأسيسية في اللسانيات "د.ط.، د.م، د.ت " ص 214.

4- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي « ط.1، القاهرة ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ت م 2004» ص22.

5- منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية «ط.1، سوريا، دمشق:دار طلاس، 1991» ص11.

6- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس العربي ص 23.

7- كمال بشر، دراسات في علم اللغة « د ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م » ص 320.

8- كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم .ص 42

9- صالح بلعيد، المؤسسات العلمية وقضايا مواكبة العصر في اللغة العربية،« د ط، الجزائر، بن عكنون : ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م» ص 2.

10- كمال بشر، دراسات في علم اللغة ص320.

11- مازن الوعر دراسات لسانية وتطبيقية ص- ص 31 - 32 .

12- عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة العربية« د ط الجزائر، بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية»، 2004، ص 51

13- المرجع نفسه ص 51

14- فاطمة الهاشمي بكوش، «نشأة الدرس العربي» ص 22.

15- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،« د.ط، الجزائر: موفم للنشر». ت.م 2007. ج1 ص227 .

16- عبد السلام المسدى، مباحث تأسيسية ص31.

17- كمال بشر «اللغة العربية بين الوهم و سوء الفهم»، ص133 .

18- عبد الجليل مرتاض « في رحاب اللغة العربية » ص101.

19- المرجع نفسه ص51.

20- عبد الجليل مرتاض « العربية بين الطبع و التطبيع » دراسة لغوية تحليلية لتراكيب عربية- د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت- ص137.

21- عبد الجليل مرتاض «في رحاب اللغة العربية » ص51.

المراجع المعتمدة

1- صالح بلعبد، المؤسسات العلمية وقضايا مواكبة العصر في اللغة العربية.« د.ط، الجزائر، بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م».

2- عبد الجليل مرتاض،« العربية بين الطبع والتطبيع، دراسة لغوية تحليلية لتراكيب عربية- د.ط، ديوان المطوعات الجامعية، د.ت».

3- عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة العربية،« د.ط الجزائر، بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية»، 2004.

4- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، «د.ط، الجزائر: موفم للنشر، ت.م، 2007»، ج1.

5- عد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، « د.ط، د.م، د.ت».

6- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس العربي الحديث في النشاط اللساني العربي، « ط.1، القاهرة ايتراك للطاعة والنشر والتوزيع، ت م 2004».

7- كمال بشر، دراسات في علم اللغة،« د.ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1998 ».

8- كمال بشر، الغة العربية بين الوهم وسوء الفهم،« د.ط، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ت.م 1999».

9- منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية،« ط.1، سوريا، دمشق: دار طلاس، 1991م ».

10- مازن الوعر دراسات لسانية تطبيقية،« ط.1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ت م 989 ».